التعليم الإسلامي

دراسة لأسس ومنطلقات العملية التعليمية

(٢)

نجف علي ميرزائي

لقد عالجنا في الحلقة السابقة من هذا البحث جوانب من أسس وركائز التعليم الديني، وتعرّضنا لبعض ما على المعلّم الإسلامي الملتزم. كما أشرنا إلى أنّ المعلّم الصالح والواجد لمؤهلات وصلاحيات التعليم الديني الحقيقي والمنسجم مع القيم الإسلامية والمعايير الأصيلة في الكتاب والسنّة الشريفة يمثّل الركيزة الأساسية في توجيه الإنسان والمجتمع نحو الخير والسعادة.

لاشك أن كثيراً من سلبيات الحياة الراهنة وتزايد حالات التيه والضلالة في حركة الإنسان والمجتمع في القرن الحاضر ناتجان من نقاط ضعفٍ في قواعد التعليم، وعدم الاكتراث بالإنماء التربوي، وخاصة من منظور الدين الإسلامي والقيم والموازين الإلهية، والتي هي وحدها تكفل حسن عاقبة الإنسان.

إذن فالمعلم هو الذي يرتكز عليه البناء القويم للطلّاب، وبه يشمخ هذا البناء أو يتهاوى، وهو الذي يربّي أجيالاً تعتمد عليها الأمّة في مسيرتها الحضارية، وفي قيادة الصحوة الإسلامية المعاصرة وترشيدها وتوجيهها وجهة الخير لدين الله ولعباده، إلى غير ذلك من حاجات الأمّة.

ومن هذا المنطلق ينبغي له أن يتزوّد بزاد الثقافة الإسلامية لتعينه على أداء هذه المهمة بنجاح.

مواكبة العصر

إننا نعيش عصراً زاخراً بأفكار ورؤى وعقائد وانتماءات مختلفة متباينة لا تجمعها في الأغلب كلمة جامعة؛ لأن كل تيّار وانتماء فكري في مختلف ساحات وصور الحياة ينبع من مصدر معرفي وجهاز فكري خاصين. ولكن ما يجب على المعلّم الديني بالذات هو اطلاعه على

ما يسود العالم من انتماءات واتجاهات فكرية ثقافية وراءها تيارات متعددة تختلف نواياها وآلياتها في تحقيق أهدافها. ومن الواضح أنّ من لا يلمّ بالواقع الذي يعيش فيه بكل ما يحتويه (هذا الواقع) من اتجاهات، سوف تخدعه اللوابس والشبهات ولن يقدر على تربية طالب متدرب على الواقع، يتعاطى الحياة على أساس مقتضياتها، ويتحرك في المسارات مُلماً بخباياها وزواياها. وفي مثل هذه الحالة تفشل الدعوة؛ لأنها عملية يتصل مدى نجاحها بنوعية الانطلاق وانسجام الحركة فيها مع واقع الصعيد الذي تنطلق فيه، وهذا كلّه يعود إلى قدرات وطاقات الدعاة في تفهّم الحياة والبيئة، وكذلك الخوض في عمق المبادئ والأصول.

إن الطالب المسلم لن ينجح في انطلاقاته الرسالية وحركته الدعوية في مستقبل حياته ما لم يتلقّ من معلّمه في فترة الدراسة ثقافة إسلامية عميقة وأصيلة من جهة، وقدرة على تحليل الواقع والتعامل معه على نمط يتناغم مع متطلبات العصر من جهة أخرى. ومن ثم تتقدم لائحةَ واجبات المعلّم وسمات التعليم الإسلامي في هذا العصر، بل في جميع الأعصار، مسؤوليةُ بناء جسور متينة علمية وموضوعية ما بين الطالب المتعلم والبيئة المشحونة بالانتماءات العقيدية والتجاذبات الفكرية.

واقع مدارسنا الدينية

ومن المؤسف أن التعليم الإسلامي في المعاهد والمدارس الدينية لا يتسم بالسمات

▣ إن كثيراً من سلبيات الحياة الراهنة وتزايد حالات التيه والضلالة في حركة الإنسان والمجتمع في القرن الحاضر ناتجان من نقاط ضعفٍ في قواعد التعليم، وعدم الاكتراث بالإنماء التربوي، وخاصة من منظور الدين الإسلامي والقيم والموازين الإلهية.

▣ المعلم هو الذي يرتكز عليه البناء القويم للطلّاب، وبه يشمخ هذا البناء أو يتهاوى وهو الذي يربّي أجيالاً تعتمد عليها الأمّة في مسيرتها الحضارية.

▣ إن الطالب المسلم لن ينجح في انطلاقته الرسالية وحركته الدعوية في مستقبل حياته ما لم يتلقّ من معلّمه في فترة الدراسة ثقافة إسلامية عميقة وأصيلة من جهة، وقدرة على تحليل الواقع والتعامل على نمط يتناغم مع متطلبات العصر من جهة أخرى.

والمواصفات التي لابدّ منها لكل من يريد التحرك في المجتمع، والمسيرة التعليمية فيها تفتقد نظاماً متكاملاً متناغماً مع متطلبات الحياة الراهنة، ومنهجية تتمتع بعناصر ربط الطالب بصميم الواقع، وبالتالي لا يقدر المتخرج منها على أن يفسِّر الانتماءات والتيارات الفكرية والدينية ويوجِّه رسالته نحو المجتمع عارفاً بما يقتضيه من أساليب الدعوة وأنماط التربية وأنساق التغيير والإصلاح. ولا يسعنا هنا ألّا نلقي بعض اللّائمة ـ في وجود هذه الفجوة الشاسعة بين المتخرج من مدرسة دينية والمجتمع ـ على المعلّم والمدرّب الذي تخرج الطالب وتلمّذ عليه. والمشكلة تعود ـ إضافة إلى ضعف المؤسسة العلمية الدينية في المنهجية ـ إمّا إلى معاناة المعلّم المسلم بدوره من الفجوة نفسها وبعده عن الواقع، وإمّا إلى عدم الاكتراث بالمسألة وفقدان الشعور بالمسؤولية حيال الشريحة الطلّابية من قبله.

من هنا ولأجل أن يتخرج من مدرستنا إنسان يفهم الحياة والعصر، وبالتالي يقدم عطاءً متناغماً معهما ومتلائماً مع تطورات حقل التربية والدعوة، ينبغي لنا أن نوظّف معلّمين مؤهلين وواقعيين. وطبيعي أن المسألة تستحق الكثير من التخطيط والبرمجة وإضفاء المنهجية على العملية التعليمية لتكون قادرة على مواكبة العصر.

لا نكون منصفين إذا ما ألقينا المسؤولية كلها على عاتق المعلّم كشخص؛ لأنّ المنهجية التعليمية هي التي يجب أن تتحمل هذه المسؤوليات، والنظام التعليمي الشامل للنصوص الدراسية والبرامج التعليمية هو الذي يجب أن يتم تخطيطه وتدوينه على نمط يلبّي مثل ما أسلفنا من حاجات الواقع. وفي مثل هذه الحالة فإن المعلّم المؤهّل هو الذي يطبق وينفّذ هذه البرامج. وما هذا إلّا لأن العملية التعليمية في هذا العصر هي على عكس العصور الخوالي. فرغم أنها تجري من خلال المعلّم ولكنها في الحقيقة بيد المؤسّسات، والمعلّمون لا يمارسون ـ في الأغلب ـ إراداتهم إلّا في نوعية تطبيق القرارات التعليمية. ومع هذا لا يمكن إنكار ما لهم من تأثير عظيم وواضح في نفسية الطالب المسلم، كما أن هذا الأمر لا يحط من شأنهم ولا يقلّل من مسؤولياتهم الإلهية في إصلاح الإنسان وتغيير المجتمع.

من الفادح المبكي أن حركة التعليم في الأمّة الإسلامية تتجه نحو كارثة وتقترب من مأساة تصيب الشباب والأجيال الإسلامية، لأن المعرفة التي تسهم في توجيه تفكير الإنسان ونظرته للأمور واتجاهه نحو نفسه ونحو العالم من حوله بدأت تنحرف عن المسار الحقيقي الكافل لاستقامة الأمّة وسعادة المسلمين.

إن أغلب مناهج العلوم الإنسانية التي تقدمها الجامعات الإسلامية والمعاهد الدينية ليس من شأنها أن تنشئ بناءً حضارياً إسلامياً ولا تربية صحيحة نتوخاها لشبابنا؛ لأنّها تستمد ـ في الأكثر ـ أنماطها وأساليبها من الآخر الذي يختلف معنا في قيمنا وأهدافنا، ولأنّ هذه المناهج لم تنطلق من أرضنا وانتمائنا، فهي لا تنسجم مع العقلية الإسلامية ورؤية المسلم إلّا إذا ما تخلّى عن انتمائه واستمد الأصول والمبادئ من الغرب.

قلنا هذا لئلّا يتصور القارئ العزيز بأن كاتب المقال تعاطى مع المسألة عفوياً وأنه يراها ساذجة، لكن رغم ذلك نحن لا نترك الإصرار على أن الكوادر التعليمية وشريحة المعلمين يتصدرون لائحة المسؤولين وهم يمثلون الروّاد في تقديم الحلول لمثل هذه الإشكالية الكبرى، وعليهم الأمل في تصحيح منحى التعليم وتقويم مناهجه بما يتفق مع الكتاب العزيز وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

واجبات المعلم الإسلامي

١ ـ الاهتمام بالخصوصيات الفردية

إن من أهم ما يجب على المعلّم الإسلامي هو اهتمامه بالطلاب كلهم وأخذه كلّ طالب على حده بعين الاعتبار، وأن يتجنب من معاملتهم معاملة واحدة ومخاطبتهم بلغة واحدة، وألا يمارس العملية التعليمية حيالهم جميعاً على نسق واحد؛ لأن الطلّاب المجتمعين في صف واحد أو قاعة تعليمية يختلفون في الغالب نفسياً وعلمياً واجتماعياً واقتصادياً، ولأنّ شخصياتهم قد تكونت من مقوّمات متعددة ومتنوعة تتطلب أساليب متكثرة في توجيه الدعوة من قبل المعلّم؛ فإن تعامله المتماثل مع جميع الطلّاب في التعليم والتربية لا ينتج إلّا الإشكاليات النفسية والعوائق التعليمية والحالات النفسية الحرجة التي ـ وإن اختفت أمام المعلّم ـ تبرز في الخارج وتظهر في شخصية الطالب على غير الصعيد المدرسي.

إن النفوس الإنسانية تشبّه بالمباني. فكما تختلف الأخيرة في مدياتها البنائية والمرافق

▣ من الفادح المبكي أن حركة التعليم في الأمّة الإسلامية تتجه نحو كارثة وتقترب من مأساة تصيب الشباب والأجيال الإسلامية، لأن المعرفة التي تسهم في توجيه تفكير الإنسان ونظرته للأمور واتجاهه نحو نفسه ونحو العالم من حوله بدأت تنحرف عن المسار الحقيقي الكافل لاستقامة الأمّة وسعادة المسلمين.

▣ إن أغلب مناهج العلوم الإنسانية التي تقدمها الجامعات الإسلامية والمعاهد الدينية ليس من شأنها أن تنشئ بناءً حضارياً إسلامياً ولا تربية صحيحة نتوخاها لشبابنا؛ لأنّها تستمد ـ في الأكثر ـ أنماطها وأساليبها من الآخر الذي يختلف معنا في قيمنا وأهدافنا.

والنوافذ والأبواب، ولا تنسجم القياسات في بناية مع غيرها ضرورة، فكذلك الحال مع الشخصيات المختلفة. كل شخصية وبناية نفسية تمتلك طرقاً خاصة بها وأبواباً متلائمة معها لا يجوز اختراقها حين التعامل معها. وهذا يعني أن لعلم النفس ومدى معرفة المعلم وإلمامه به دوراً هاماً ومصيرياً في مدى نجاحه.

كما هو واضح وطبيعي، أننا لا ننوي بذلك أن نقلّل من مغزى الرسالة والتربية الإسلامية، بل نريد الإصرار على أن الذي يتحوّل ويتغير من شخصية إلى أخرى ليس إلّا أساليب التعامل وأنماط توجيه الرسالة والخطاب، وأما الرسالة والخطاب نفسهما فلا يختلفان غالباً في المحتوى والمضمون. والشخصية الإنسانية هذه من أكثر الأمور تعقيداً، فإذا عرفناها جيداً واكتشفنا أبوابها ونوافذها بصورة صحيحة ووضعنا أمامنا التصميم والرسم اللذين على أساسهما بُنيت، حينئذٍ نلاحظ نجاحاً باهراً في الكلام ودعوة الطالب إلى الخير الشامل؛ لذلك نجد النصوص الدينية والآيات القرآنية حافلة بأساليب وأنساق تعليمية وتربوية قد تختلف في كثير من الأحيان باختلاف الشخصيات التي انطلقت الدعوات نحوهم. فنظرة عابرة على أبواب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في كتب الفقهاء العظام وكتب وأبواب المعاشرة والأخلاق تكشف لنا عن هذه الحقيقة.

انطلاقاً من هذه المسألة المصيرية في التعليم، نقول: إن الشخصية في الإنسان تحتلّ المركز الأول في الدعوة الإسلامية والتعليم الديني، وإهمالها يؤدّي إلى انهيار الحركة وفشل الدعوة؛ لأنّ عدم الاكتراث بها في هذه المهمة تنتهي في الأغلب إلى الاستهانة بها والإساءة إليها وتشويهها وتحقيرها، مع أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي كرّم بني آدم وهو الذي لا يسمح لأحد أن يمس كرامة إنسان أو يقوم بإذلال شخص.

وأخيراً فمعرفة المعلّم لخصائص الطالب الشخصية والنفسية والعقلية والعناية التربوية والتعليمية به ـ آخذاً بعين الاعتبار هذه المواصفات في التعامل معه قدر المستطاع ـ تعود بنجاح كبير لعملية الدعوة والتوعية والتثقيف والتعليم جميعاً، وإهمالها سيسفر عن إخفاق المشاريع وفشل العمليات.

أجل، إن السيرة النبوية الشريفة وحياة آل البيت عليهم السلام زاخرة بدقائق ولطائف التربية والتعليم، وبدونها تفشل المحاولات الهادفة إلى المنهجية في التربية والتعليم. ولكننا ننصح المعلّم الإسلامي ـ مع ذلك ـ أن يتزوّد بشيء لازم من علم النفس من وجهة نظر الدين الإسلامي.

إن أسس عملية التعليم الديني متعددة، فهي تعنى بتربية فرد له مواصفاته وسماته الجسمية والعقلية والنفسية، وتكون عنايتها بهذا الفرد في إطار تربية اجتماعية للحياة في مجتمع معين له أهدافه وتاريخه وثقافته ومشكلاته... وتعنى بالمعرفة التي تختلف في مفهومها ومصدرها ووظيفتها من مجتمع لآخر، ويكون تخصص المعلّم جزءاً مهماً من هذه المعرفة، بحيث إنّه يشكل أساساً في عملية التعليم. ولهذه العملية فنون وطرق وأساليب وأدوات هي في واقعها قنوات اتصال بشري لها أصولها. وما يتناول هذه

الجوانب جميعها من تطورات معاصرة سريعة يجعل مواكبة هذه التطورات من بين أسس عملية التعليم.

٢ ـ إتقان اللغة العربية

ومما يستحقّ الاكتراث به على صعيد مسؤوليات ومواصفات المعلّم الإسلامي هو تمكنه من مهارات التعبير باللغة العربية الفصحى ومن التدريس بها.

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فيه بلاغة، وعليه طلاوة، نافذ بفصحاه إلى العقول وبجرس عباراته إلى الأفئدة، وبجزالة أسلوبه إلى الوجدان. ترقى بمعانيه النفوس وترقّ له القلوب، وقد أحاط بمواقع الكلم، وكما جاء في كلام الإمام علي عليه‌السلام في نهج البلاغة «ظاهره أنيق وباطنه عميق».

قد اقتضت حكمة الله بأن يحفظ كتابه وسنّة رسوله، اللذين يمثّلان الركيزتين الأساسيتين في الشريعة الإسلامية، في وعاء العربية الفصحى ويقيهما ويصونهما من العبث والتغيير أو التحريف. فكلّما كان الإنسان متمكناً من الفصحى كان على الارتواء من هذين النبعين والثقلين أقدر. وكلّما سبر غور اللغة الفصحى ومهر وبرع في السباحة في بحرها، ازداد فهماً وبصيرة بهدي هذا الدين القيم وإدراكاً لعظمته. أما من صرفه صارف، أو شغله شاغل، أو تكاسل عن إتقان اللغة، فإنه بهذا قد بنى سداً بينه وبين مصادر الدين الحنيف والتراث الإسلامي الذى يبيّن أصول العقيدة ومقاصد الشريعة وحكمة التشريع وأسس العبادات والمعاملات وماهية الأخلاق.

▣ لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فيه بلاغة، وعليه طلاوة، نافذ بفصحاه إلى العقول وبجرس عباراته إلى الأفئدة، وبجزالة أسلوبه إلى الوجدان. ترقى بمعانيه النفوس وترقّ له القلوب، وقد أحاط بمواقع الكلم، وكما جاء في كلام الإمام علي عليه‌السلام في نهج البلاغة «ظاهره أنيق وباطنه عميق».

▣ إنّ الأعداء والمتربصين بالأمة الإسلامية أدركوا مدى أثر اللغة العربية وبالغ دورها في تمتين العلاقة بينها وبين المعرفة الإسلامية والدين الحنيف، ثم وحدة الأمة وسيادتها على مصيرها؛ فمكروا وخططوا لهدمها.

هذا كلّه لأن العربية هي الطريق المستقيم للفهم الصحيح والتعبير القويم. فهل يمكن للمعلّم أن يعي ويستوعب مقاصد الشريعة وأحكام الدين وعياً دقيقاً واستيعاباً صحيحاً إلّا بعد إتقان اللغة العربية وإجادتها والإلمام بدقائقها.

إن المعلّم الذي يبحث عن الاستقلال في الفكر ويحاول الخروج من ربقة التقليد الأعمى ويريد القيام بالتوعية والتثقيف مقتنعاً عارفاً بمغزى عمله، لابدّ له من اكتساب الخبرة في اللغة العربية لأنها البوابة الرئيسية نحو العمق في معرفة الدين الإسلامي.

إنّ الأعداء والمتربصين بالأمة الإسلامية أدركوا مدى أثر اللغة العربية وبالغ دورها في تمتين العلاقة بينها وبين المعرفة الإسلامية والدين الحنيف، ثم وحدة الأمة وسيادتها على مصيرها؛ فمكروا وخططوا لهدم اللغة العربية وحثّ الشعوب الإسلامية على هجرها إلى غيرها من اللغات، وكذلك رفع شعارات قومية ونعرات قطرية بما فيها التحمس والإثارة نحو اللهجات العامية في الدول العربية وتصوير اللغة الفصحى لغةً لا تأتي بخبرات الحياة بالمقارنة مع غيرها من اللغات الغربية للدول غير العربية.

ولعلّ من أكبر التحديات والأخطار التي يواجهها المعلّم غير المتقن والملمّ باللغة العربية هو الاضطراب الذي يتعرض له في بنيته الفكرية وأصوله العقيدية؛ لأنّ المعلّم يعيش أجواء ثقافية تملأها الاتجاهات والانتماءات الكثيرة، وكلّ يستدل على صحته وصوابه بالعقلية السائدة على مصادره الرئيسية وأصول وأسس استمدّت منها تلك التيارات الفكرية شرعيتها وجذورها. ولكنّ المثقف المسلم غير العارف باللغة العربية انقطعت في الحقيقة العلاقة بينه وبين ماضيه وتراثه من جانب، وبينه وبين أصول وجذور الدين الإسلامي من جانب آخر.

إنّ العربية تمثّل الأهم في آلية معرفة الشريعة، وبدونها يتعرض الإنسان لخطر الانحراف والانحياز نحو ثقافات زائفة وانطباعات خاطئة مختلطة وممتزجة بالنزعات العقلية البحتة التي ترفض التسليم بأغلب الشريعة الإسلامية تحت شعارات مستوردة من الغرب.

والأمر الذي أثار استغرابنا هو أن بعض القائمين على إنشاء المدارس الدينية والتي تهدف إلى تدريب وتخريج الدعاة والمبلغين الإسلاميين، ركّزوا على لغات غير اللغة العربية بحجة أنها إسلامية أيضاً؛ والحال أنّ العربية هي الرابطة والجسر بين الإنسان ووعي الشريعة، وبدونها لا يسلم الداعية من خطر الانحراف، ولا تبتعد عقائدها من الزيف والامتزاج بغيرها.

إنّ كثيراً من المعلّمين العرب يدرّسون النصوص الدينية باللهجة العامية، وليس خافياً على أحد أن مثل هذه الممارسات تحبط الأهمية الكامنة للعربية في أعماق الطالب، خاصة إذا لاحظ شيئاً من السهولة في استخدام العامية بالمقارنة مع العربية الفصحى.

قد لا تحكي مثل هذه الممارسات عن النزعة القطرية أو فكرة تهميش اللغة الفصحى، بل يقترف من يقترف هذا العمل في كثير من الأحيان دون نية سيئة وليس عن قصد، ولكن المشكلة تحدث

والكارثة تقع، ولا فرق أن نحدثها قاصدين عامدين أم جاهلين غافلين، وإن ما يجب علينا هو الانتباه والاستيقاظ ومعرفة دور اللغة العربية الرئيسي والمصيري، وأن لا ننسى أن الترجمة لا تسدّ الثغرة لأنها عادة ما تحول دون فهم الباحث ووعيه الدقيق للمعايير والموازين الدقيقة في زوايا وخبايا النصوص التي تختفي في الأغلب عن مستوى إدراك وفهم الناقل.

٣ ـ الانفتاح

وأخيراً ينبغي للمعلم الإسلامي الالتزام بحالة الانفتاح لأنه يخاطب شخصيات متعددة مختلفة في مستوى الوعي والشخصية ومنطلقاتهم في الحركة العلمية وكذلك تختلف وجهات نظرهم العقيدية وقناعاتهم الفكرية. فمن الطبيعي أن يواجه المعلّم مجموعة قد لا تلتقي على النقاط التالية ولا تتفق على قرارات موحّدة. ومهما يكن من أمر أحسب أن المعلّم الذي يأخذ في كل آناء العمل نفسه بعين الاعتبار ويعتبر ذاته الميزان والمعيار في فرز الحق من الباطل ويزن الطلّاب في مواقف الحركة والقناعات العقيدية بما هو عليه من الفكر والمبدأ، أحسب أن مثل هذا المعلّم سوف يحرم نفسه حصة كبيرة من النجاح وبالتالي لن يحقق قدراً ملحوظاً من الطموحات الإسلامية في المسؤولية التعليمية.

إن الانفتاح الروحي والترحاب بوجهات نظر الآخرين وخاصة شريحة الطلّاب والمتعلمين يحدث مجالاً مباركاً لتقدم وتحرك الطالب نحو الأمام؛ لأنّ المرء بطبيعته لو واجه عقلية متعنتة ونزعة ذاتية من قبل الآخرين يفضّل مغادرة الساحة العلمية، لأجل أن المجال العلمي لو انغلق عليه ولاحظ حرجاً في التعبير عن ما يخطر بباله ويتحرّك في ذهنه وفكره، تجمد الحركة الفكرية تلقائياً. إنّما المعلّم هو الذي عليه أن يتقدم بفكر الطالب نحو مجالات واسعة وميادين فكرية منفتحة.

إذا ما عثر المعلّم أخطاء في الفكر لا يجوز أن تكبح حركته ويحول دون تحرك وتجوّل عقل الطالب. كلّ ما على المعلّم في هذه الحالات أن يبادر إلى إصلاح العقيدة بشكل غير مباشر دون مسّ كرامة الطالب أو الحاق خسارة عقلية به. والإنسان في بعض الأحيان يحقق النجاح والتوفيق في إصلاح موقف الطالب عبر الغضّ والإغماض أكثر مما إذا صرّح وواجه مباشرة؛ ولا ننسى أنّ للشبيبة حالات نفسية تخصّهم، تأتي الكوارث الفكرية منها إذا ما أهملها المعلّم.

للبحث بقيّة